الأمير

جعفر بن أبي طالب

رضي الله عنه

القيادة: إنجاز .. قدرة على التغيير..

تحمل .. تضحية..

القيادة .. تعني الكثير.

«ولم لا ؟»

هتف بها جعفر بن أبي طالب بعد أن استغرق في تفكير عميق لأكثر من ساعة، وبدا وكأنه يحدث شخصا آخر وهو يتابع:

- لم لا يكون محمد نبيا، وكيف أشك في صدقه الآن ونحن أقرب الناس إليه، وأعرف قريش بأخلاقه ؟

وأخذ ينظر لجدران البيت وهو يقول:

سبعة عشر عاما شهدتها جدران هذا البيت قبل زواجه، كلها تشهد بصدقه وخلقه..

أبي يحبه حبا عظيما، تماما كما أحببناه جميعا، حتى إنه استأمنه على أخي (علي) ليتربى معه في بيته، ولم يراجع عليا حين علم بإسلامه.

علي لا يفارقه، ولا يستطيع أن يفارقه من شدة حبه له..

كلام محمد منطقي واضح، ودعوته بسيطة ومفهومة، لا يستطيع أحد في مكة أن يدعي خطأها لو جلس جلسة صدق بينه وبين نفسه..

من العاقل الذي يظن أن الأصنام آلهة ؟!

ومن الذي يرفض الدعوة إلى الأخلاق إلا إذا كان فاسدا بلا أخلاق؟

وأخذ جعفر يرتب الأحداث ويستدعي المنطق ويفرض الحجة، فتتضح الصورة شيئا فشيئا، ويقترب من الحق شيئا فشيئا..

ولم تكن المقدمات لتؤدي إلا إلى نتيجة واحدة ووحيدة..

الإسلام..

لقد أسلم جعفر، بعد أن تأخر عن أخيه علي بعام تقريبا..

ولكن لا بأس.. فمواهب جعفر وقدراته ستجعله قادرا على تعويض هذا العام..

بالتأكيد كان فرح الرسول ﷺ شديدا بإسلام جعفر في بداية السنة الثانية للبعثة..

فجعفر كان شابا موهوبا، تربى في بيت زعامة.. كان لبقا ذكيا، لا يهاب الكبار، ويعرف كيف يتحدث معهم، علمه أبوه من مواقفه ومواقف جده، أن الزعامة تعنى الدفاع عن الحق، وأن الشجاعة شجاعة الوقوف ضد الظلم والدفاع عن المبدأ، وأن القوة هي قوة الرأي والعزيمة وصلابة الإرادة، وأن الفقر لا يعني التنازل عن المبادئ.

كانت عزة جعفر سمة من سمات شاب تربى في بيته على قيم الحرية والعدل، حتى جعلت أباه لا يراجع عليا في إسلامه أو ينهره، أو يأخذه من بيت محمد ﷺ.

وفي دار الأرقم، يجلس جعفر ذو الأربعة والعشرين ربيعا مع الرسول ﷺ والصحابة، ليتعلم تعاليم السماء وتصقل مواهبه يوما بعد يوم...

كان جعفر شديد التأثر بالرسول ﷺ حتى أصبح أقرب الناس إليه شبها في أخلاقه كما كان أقرب الناس إليه شبها في شكله وملامحه بحكم القرابة..

سنتان في دار الأرقم، وبين الحين والآخر يجد جعفر وجوها جديدة، وأتباعا جددا..

سنتان.. ومكة مترقبة، والطرقات على باب الأرقم تزيد شهرا بعد شهر..

ويحدث الصدام..

وتخرج مكة عن هدوئها..

لقد أعلن الرسول ﷺ الدعوة ..

شعرت قريش بعدها أن هناك من يعلن الحرب عليها، وأن صراع المبادئ والمصالح قد بدأ، وأنه لا مجال للفوز فيها لفتى قريش.

لكن أباه، «أبا طالب».. لا زال على العهد معه، لا يزال يعطيه الدرس تلوالدرس في الوقوف مع الحق، مهما كانت النتائج ومهما استلزمت التضحيات..

لقد أعلن أبو طالب حمايته لرسول الله ﷺ..

بالتأكيد فرح جعفر ومعه الصحابة، فحماية رسول الله ﷺ تعني حماية الدعوة..

وبالتأكيد كانت نظرات الرسول ﷺ لجعفر كلما رآه تعني الكثير..

بالتأكيد كان حب الرسول ﷺ لجعفر حبا من نوع مختلف..

كان حبا مركبا.. حبا يضرب في جذور الأرض بحكم القرابة، ويصعد إلى عنان السماء بدافع العقيدة..

وحبا آخر.. كان يراه فيه كلما التقت عيناه عينيه. حب أبيه...«أبي طالب»..

كان يقرأ في عينيه تحديه لقريش وصبره على سخافاتهم وتحمله الصعاب من أجله.

كان يقرأ في عينيه البطولة والصمود والوفاء.

نعم..لقد حمى أبو طالب الرسول ﷺ..لكنه لم يستطع أن يحمي بقية المسلمين..

تعذيب شديد وانتقام هستيري، كانت السياسة التي انتهجتها قريش لمقاومة الفكرة والقضاء على الدعوة..

عمار يصرخ، وخباب يستغيث، وبلال يئن..

والرسول ﷺ قلق أشد القلق، إنه مخطط إبادة للدعوة، لو نجحت فيه قريش لانتهى كل شيء قبل أن يبدأ..

وبدأ الرسول ﷺ يعصف ذهنه للبحث عن مخرج ينقذ الدعوة..

إنها الهجرة..

نعم الهجرة.. كانت هي الحل الوحيد لتأسيس قاعدة جديدة للدعوة.

وبخبرة الرسول ﷺ.. وقع اختياره على الحبشة؛ حيث النجاشي، الملك العادل الذي لا يظلم عنده أحد.

لكن تأسيس قاعدة جديدة للدعوة في بلد غريب، يتطلب أمورا لابد من توافرها في المجموعة التي ستذهب للحبشة وتستقر فيها..

لابد من قبول النجاشي أولا لهذه المجموعة واقتناعه بوجهة نظرهم..

لابد من قدرة هذه المجموعة على التعايش مع أهل الحبشة رغم اختلاف اللغة والديانة والثقافة..

لابد من قيادة حكيمة لهذه المجموعة تحافظ عليهم تربويا وتذكرهم بمعاني الصبر والتضحية والثبات، فربما تكون الغربة أشد فتكا عليهم من مخططات قريش بالفتك بهم.

إن الأمر يحتاج إذن إلى قيادة حكيمة ونادرة، تكون بديلا للرسول ﷺ في الحبشة..

ولقد وقع اختيار الرسول ﷺ عليه بلا تردد..

جعفر بن أبي طالب..

الرسول ﷺ يعرف «جعفر» جيدا، ومقوماته تجعله بالتأكيد صالحا للمهمة..

جعفر من عائلة كبيرة، سيكون له وقاره واحترامه عند النجاشي والمسلمين على السواء..

جعفر لن يهاب النجاشى رئيس الدولة عند الحديث معه..جعفر قائد يستطيع أن يجمع المسلمين في الغربة ويحافظ عليهم تربويا...

فليكن «جعفر».

ويهاجر جعفر في جنح الظلام ، ويخرج معه ثلاثة عشر رجلا وأربع من النسوة، منهم زوجته أسماء بنت عميس ، عبر سفينتين على البحر الأحمر في رجب من السنة الخامسة للبعثة..

ويصل الخبر إلى قريش، ويحاولون اللحاق بهم دون جدوى..

وتمر الأمور بسلام، ويقبل النجاشى بلجوء المسلمين السياسى..ولأول مرة يشعر المسلمون بالأمان والحرية إلى الدرجة التي جعلت النصارى من أهل الحبشة يسألونهم عن الإسلام..عن فكرته وتعاليمه..

إلا أنه بعد مرور شهرين من تواجد المسلمين في الحبشة، وفي شهر شوال بالتحديد..

تحدث مفاجأة.. مفاجأة مدوية..

لقد سرت شائعة بإسلام قريش..

وذهل المسلمون في الحبشة ذهولا أبعدهم عن المنطق الذي يدفعهم للتأكد من الخبر، قبل الإقدام على خطوة الرجوع إلى مكة..

وقرر المسلمون فعلا العودة إلى مكة مرة أخرى..

إلا أن جعفر بن أبي طالب انتهز فرصة العودة إلى مكة، واستطاع أن يقنع مجموعة من نصارى الحبشة بدت رغبتهم القوية في التعرف على الإسلام، بأن يصطحبهم معه ليلاقوا الرسول ﷺ..

لا شك أن مفاجأة الرسول ﷺ كانت كبيرة لما حدث..

ما الذي دفع المسلمين للرجوع في هذا التوقيت دون إذن منه..إن هذا سيكلف المسلمين الكثير من الأذى..

وقبل أن يتفرغ الرسول ﷺ لمشكلة عودة المسلمين خطأ إلى مكة.. جلس مع وفد نصارى الحبشة يتحدث معهم عن فكر الإسلام وتعاليمه، وظل النصارى يراقبون تصرفات الرسول ﷺ وأخلاقه وطباعه فأحبوه وآمنوا به جميعا..

لقد أسلم بضع وثلاثون نصرانيا دفعة واحدة.. يا له من انتصار!

إلا أن المسلمين كان ينتظرهم انتصار آخر..

لقد نجح المسلمون في الهجرة مرة أخرى، وبأكثر من خمسة أضعاف المرة الأولى..

لقد هاجر مع جعفر هذه المرة، اثنان وثمانون رجلا، وثماني عشرة امرأة..

يا لها من ضربة قوية لقريش أذهلتهم وأثارت الحقد في نفوسهم..

ولكن ماذا يفعلون ؟

لقد أدركت قريش يقينا مخطط الرسول ﷺ في نقل المعركة خارج مكة، ومحاولة نشر الفكرة في أرض ليست بأرضهم، وليست لهم سيطرة عليها..لكن ثمة خيط رفيع يربط بينهم وبين النجاشي..

عمرو بن العاص صديق النجاشي..

وإذا أضفنا إلى ذلك ذكاء عمرو ودهائه ولباقته في الحديث، نكون قد اقتربنا من كسب المعركة، والعودة بهم مرة أخرى إلى مكة..

وعندها يكون لكل حادث حديث..

حديث صعب.. وقاس.

* * *

وصل عمرو بن العاص ومعه عبد الله بن ربيعة إلى أرض الحبشة، وحسبما كان متفقا عليه في خطتهم، أجلا مقابلة النجاشي إلى ما بعد مقابلة الأساقفة وكبار رجال الكنيسة، حيث أغدقا عليهم هدايا ضخمة طمعا في أن يقووا موقفهما عند الوقوف أمام النجاشي.

وتمت الخطة بنجاح.. ونجح عمر بن العاص وعبد الله بن ربيعة في شحن الأساقفة ورجال الكنيسة ضد المسلمين..

الآن أصبح الوضع مهيئا تماما لمقابلة النجاشي وعرض الأمر عليه..

«أيها الملك.. إنه قد ضوى لك إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، بل جاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم، وأعمامهم، وعشائرهم، لتردهم إليهم».

هتف بها عمرو بن العاص للنجاشي الذي كان يجلس على كرسيه العالي في وقار مهيب، وقد أحاط به الأساقفة ورجال الحاشية، والذي نظر إلى عمرو قائلا في حدة:

«لا والله..إذن لا أسلمهم إليكم، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي،واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليكم، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منكما وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

إنها بديهيات العدل..عدم الحكم في شكوى إلا بعد سماع الطرفين..

طأطأ عمرو رأسه بعد رد النجاشي، وشعر أن المسألة أصعب مما توقع وأن جولة أخرى بانتظاره؛ عليه أن ينتصر فيها..

وحتما..

* * *

وصلت دعوة النجاشي لجعفر بالحضور ..فشعر بالقلق وعرف ما تكيده قريش لأصحابه، فدعاهم إلى اجتماع للتشاور في الأمر ودراسته من كل الجوانب..

وتم الاتفاق على أن يقال ما تعلموه وما علموه من رسول الله ﷺ.. دون خجل أو مداراة..

ولكن من يتحدث باسم المسلمين..

إنها كلمات ستحدد مصير المسلمين في الحبشة وربما ستحدد مصير الدعوة أيضا..

من يستطيع أن يقف أمام رئيس دولة من ناحية، وعمرو بن العاص من ناحية أخرى.. فلا يهتز ولا تضيع الأفكار من رأسه؟!

من لديه الشجاعة ليتحمل هذه المسئولية الخطيرة..

إنه قائدهم...جعفر بن أبي طالب.

وقف جعفر بن أبي طالب في هدوء وثقة ووقار أمام النجاشي، وهو يستمع إلى النجاشي وهو يسأله:

– ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا واحدة من هذه الملل ؟

نظر جعفر إلى الملك وهو يبتسم له ابتسامة إجلال ومحبة وأخذ يقول:

«يا أيها الملك.. كنا قوما أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان..

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء..

ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.. فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاءه من ربه، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فغدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، وإلى ما كنا عليه من الخبائث.. فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك».

عظيم يا جعفر..عظيم..

إيجاز في الرد، وعبقرية في العرض وشجاعة نادرة في موقف مهيب لا يتمالك فيه أعصابه إلا أمثال جعفر..

أحسنت يا جعفر..

بجمل بسيطة مفهومة موجزة.. يشرح جعفر رسالة الإسلام بلا تردد، فكل ما فيها يوافق الطباع والفطرة السليمة، وحتما سيعجب بها ملك عادل خلوق مثل النجاشي...

ليس هذا فحسب..فلقد قلب جعفر الطاولة على عمرو بن العاص؛ حين أشار في حديثه إلى تعرضهم للاضطهاد والظلم والقهر من قبل قريش، والتى يمثلها عمرو بن العاص وعبد الله بن ربيعة،لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بدين يدعوهم إلى صدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم.

لمست كلمات جعفر قلب النجاشي، وشعر أنه في حاجة لأن يستمع للمزيد، فطلب من جعفر أن يتلوا شيئا مما جاء به القرآن.

انتعش جعفر بعد طلب النجاشي، فلقد تدخل القرآن في المناظرة،إن المسألة قريبة جدا من الحسم لصالح المسلمين..

وبذكاء نادر يختار جعفر آيات من سورة مريم ليقرأها على النجاشي..

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم].

في هذه المرة لم يتحمل النجاشي..

فلقد بكى..وبكى..وبكى..حتى ابتلت لحيته..

حتى الأساقفة الذين ظن عمروأنه طواهم برشوته لهم.

بكوا أيضا..

ويرفع النجاشي رأسه والدموع تتساقط من عينيه وهو يقول في تأثر:

- إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة..

ثم يلتفت بنظرة حاسمة إلى عمرو وابن ربيعة وهو يصيح في حسم وغضب:

- انطلقا..فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون.

انتصار ساحق..وهزيمة منكرة..

وجن جنون عمرو بن العاص، فلقد صدم صدمة ما بعدها صدمة، فلم يتصور بأي حال أن ينصر صديقه النجاشي المسلمين عليه .. وفي فورة غضبه، نظر إلى ابن ربيعة وهو يقول:

- والله لأتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم.

وحاول ابن ربيعة أن يثنيه عما أراد فقال له في توسل:

- لا تفعل.. فإن لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا.

إلا أن ثورة الغضب والشعور بإهانة الكرامة كانت جامحة عند عمرو، فقرر أن يلقي بورقته الأخيرة في وجه جعفر..

ورقة عيسى عليه السلام..

بالفعل كانت ورقة قوية أربكت «جعفر» وأربكت النجاشي..

وفي اليوم التالي..وقف عمر بن العاص أمام النجاشي وهو ينظر إليه بخبث قائلا:

– أيها الملك..إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما؛ فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه..

قنبلة ألقاها عمرو في وجه المسلمين، أربكتهم لا شك..

وللمرة الثانية.. يعقد جعفر اجتماعا للمسلمين..للاتفاق على الرد.

وللمرة الثانية.. يكون الاتفاق على قول الحقيقة، كما أتى بها القرآن مهما تكن النتائج..

ووقف جعفر أمام النجاشي وهو يرى عمرو بن العاص يبتسم ابتسامة خبث ودهاء وأخذ يقول:

– نقول في عيسى الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

وفي الوقت الذي انتظر فيه عمرو غضبا وثورة عارمة من النجاشي وقرارا حاسما بطردهم من البلاد، فإذا بالنجاشي ينهض في هدوء من على كرسيه المهيب، ويسير بضع خطوات، ثم يلتقط عصا رفيعة من الأرض ثم يقول:

– والله ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت، هذا العود.

وهنا.. ثار الأساقفة من حوله معترضين على ما قاله النجاشي، إلا أن النجاشي لم يعبأ بهم، وفي شجاعة زعيم عادل، نظر إلى جعفر ومن حوله من المسلمين قائلا في حزم وقوة:

– اذهبوا.. فأنتم آمنون بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي جبلا من ذهب وأني آذيت فيكم رجلا منكم..

ثم نظر إلى حاشيته وهو يشير بيده إلى عمرو وابن ربيعة قائلا في غضب:

– ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها.

الآن حسمت المعركة..

الآن انتصر المسلمون...

وطأطأ عمرو بن العاص رأسه في أسف وحسرة.. وهو لا يدري ماذا سيقول لقريش عندما يعود.

بل إنه لا يدري أصلا كيف يعود..

الآن..نجح جعفر في أن يجعل للمسلمين وطنا آمنا..

انتهت مرحلة صعبة..مرحلة الإفلات من مؤامرة قريش.

لتبدأ مرحلة أخرى..

مرحلة التعايش..

ولقد نجح فيها المسلمون بقيادة جعفر أيضا، لقد قرروا أن يقوموا بإنتاج المصنوعات الجلدية وبيعها لأهل الحبشة بأسعار رخيصة..

ونجح المسلمون..وأحبهم أهل الحبشة، وأحبوا هم أهل الحبشة ، بل لقد كانوا يتحدثون عن الإسلام بحرية دون أن ينكر ذلك عليهم النجاشي، ويعتبره زعزعة لحكمه..

لقد كان النجاشي يقترب من الإسلام شيئا فشيئا.

خمسة عشر عاما..نجح فيها جعفر في قيادة المسلمين في الحبشة..

جعفر ينجح بالفعل فيما أراده الرسول ﷺ..

قاعدة جديدة هادئة مستقرة للمسلمين، لم تجرؤ قريش على الاقتراب منها.

خمسة عشر عاما..نجح فيها جعفر في أن يجعل فيها أصحابه لا ينسون ما تعلموه طيلة أكثر من أربع سنوات في دار الأرقم..

خمسة عشر عاما.. ولم يشتك أحد ولم يتذمر أحد، ولم يعرف أن أحدا عاد أو فكر في العودة إلى مكة أوالهجرة إلى المدينة.

خمسة عشر عاما.وأخبار الرسول ﷺ والمسلمين تصلهم..فيحزنون تارة ويفرحون تارة أخرى..

الحصار الاقتصادي..الهجرة إلى المدينة، غزوة بدر، غزوة أحد، غزوة الأحزاب، صلح الحديبية..

وفي العام السابع من الهجرة قبيل غزوة خيبر، يبعث الرسول ﷺ رسوله إلى جعفر ليخبره بإذن الرسول ﷺ لهم بالهجرة إلى المدينة..

لقد استقر الوضع في المدينة تماما، ولم يعد الرسول ﷺ يخشى عليها من شيء. .

ترى كم كانت فرحة جعفر والمسلمين بالخبر..

يا لله.. خمسة عشر عاما لم يقابل فيها المسلمون إخوانهم في مكة..

خمسة عشر عاما.. ولم تلتق عينا جعفر بعيني حبيبه رسول الله ﷺ..

الآن حان اللقاء يا جعفر..

الآن يصحب جعفر بن أبي طالب المسلمين، وزوجته وأولاده الثلاثة إلى المدينة، حيث لقاء الحبيب وأصحاب الحبيب ﷺ...

وبدأت الرحلة.. ويدخل جعفر والمسلمون المدينة، في الوقت الذي كان فيه الرسول ﷺ والمسلمون قد انتهوا من غزوة خيبر، وعادوا سالمين غانمين محققين انتصارا باهرا مبهرا..

وبينما كان الرسول ﷺ والصحابة جالسين في المسجد يحتفلون بانتصار خيبر، إذا بجعفر

وأصحابه يدخلون..

وتسود لحظات من الصمت تتجلى فيها كل الذكريات والمآسي والأفراح..

وفجأة.. ينتفض المسلمون مهللين مكبرين يحتضنون إخوانهم في شوق وحب، في مشهد مؤثر امتزج فيه الفرح بالدموع..

وينظر الرسول ﷺ إلى جعفر نظرة شوق لا آخر لها وهو يقول:

« لا أدري بأيهما أسر..بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر ؟!».

الآن يعود اللقاء يا جعفر..ويكثر الحديث..

يجلس جعفر والمسلمون، فيسألون عما حدث لهم ويسألهم أصحابهم عما حدث لهم..

تاريخ طويل وأحداث عظيمة وقتال مرير وشهداء كثيرون..

لكن أيام جعفر في المدينة لم تطل..

والحديث لم يستمر طويلا ..

فلقد أحب الله لقاء جعفر..

فبعد عام واحد فقط من وصول جعفر للمدينة، يقرر الرسول ﷺ الثأر لرسوله (الحارث بن عمير الأزدي)، الذي قتل غدرا على يد الغساسنة.

وكانت معركة مؤتة..

وما أصعبها من معركة..

المسلمون بعددهم القليل وعتادهم البسيط، في مواجهة أقوى قوة على وجه الأرض..

الروم..

قوة جبارة، قوامها مائتى ألف من المقاتلين والفرسان وأحدث أنواع الأسلحة، يواجههم ثلاثة آلاف مقاتل مسلم.. فقط لا غير..

يا لها من مهمة صعبة تحتاج إلى أبطال من طراز فريد..

ويقلب الرسول الأسماء ويفند الشخصيات..

فيختار زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة..

المهمة الثانية لجعفر..والمهمة الأخيرة..

والتقى الجيشان..

كان المشهد كفيلا بالرهبة والخوف..وربما الرعب..

فكيف يقف ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف مع ذلك الفارق الكبير في نوعية السلاح وتطوره ؟!

بأي عقل وبأي منطق ؟!

لكن قلب جعفر الشجاع، قلب لا يعرف الخوف أبدا..

بالأمس وقف أمام النجاشي وعمرو بن العاص لينقذ المسلمين من خطر مؤكد..

واليوم يقف أمام جيوش الروم..

وبدأت المعركة..وجعفر يقاتل تحت قيادة زيد بن حارثة كأسد جريح لا يوقفه أحد..

إلا أن زيد بن حارثة يسقط..وقبل أن تسقط الراية من يده، يجري جعفر ليلتقط الراية من يده..

ويتولى قيادة الجيش..

كان من رأى جعفر وهو يقاتل، من الصعب عليه أن يتصور أنه شخص واحد، فربما كان أكثر من شخص اجتمعوا في نفس واحدة..

كان يمر في الصفوف فيقاتل قتالا رهيبا شرسا، قتال رجل يقول للجميع: أنا جئت إليكم لأموت لا لأنتصر..

يا له من قلب شجاع!

كانت جنود الروم تنظر لجعفر وهو يقاتل بذهول، وبعد فترة أيقنوا أن هذا الرجل له تأثير معنوي هائل على جنوده..

فقرروا قتله..

وبينما بدأ مقاتلوالروم من حوله الترصد له، شعر جعفر بأن فرسه تعوق حركته، فنزل من عليها لتزيد سرعته في القتال، وفي غمرة قتاله لمح أحد الرومان يريد أن يركب فرسه، فضرب قدميها بسيفه فبركت على الأرض..

وفي سرعة فائقة.. يصوب جعفر سيفه يمينا ويسارا، والرؤوس تتساقط من حوله كالذباب..

كان جعفر مصرا على الوصول للجنة بأقصى سرعة..

كلماته كانت تنطق بما كان يتمناه..

حبـــذا الجنـــــة واقترابـــــها طيبـــــة وبـــــارد شرابهـــــا

والـــروم روم، قـــد دنـــا عـــذابها كـــافرة بعيـــدة أنـــسابها

عـــــلي إذا لاقيتهـــــا ضرابهـــــا

أحكم مقاتلو الرومان الحصار حول جعفر، وقاتلوه قتالا مجنونا وكأنهم يقاتلون كتيبة ماهرة مدربة، وأخذوا يصوبون إليه سيوفهم بلا رحمة..

كانت الطعنات تتوالى على جعفر فتنال من جسده، وتتفجر الدماء من صدره وأحشائه فلا يلين ولا يستسلم..

كل هذا..ويا للعجب..والراية مرفوعة في يده..

عن أي شجاعة نتحدث..

إنها شجاعة مقاتل في سبيل الله، سأل الله الشهادة بصدق فنالها كأفضل ما ينال الشهداء..

وفي ضربة خاطفة، استطاع أحد مقاتلي الروم أن ينزل بسيفه بضربة قوية قاصمة على يمين جعفر فقطعها..

وقبل أن تسقط الراية، نقل جعفر الراية بخفة ومهارة إلى يده اليسرى، ويتابع المقاتل الرومى ضرباته فينزل بسيفه بقوة على يده اليسرى، فتقطع، وقبل أن تسقط الراية احتضنها جعفر بين عضديه، لتأتي الضربة الثالثة في صدره..

ويسقط جعفر..

وينادي بكل ما أوتي من قوة على عبد الله بن رواحة، فيجري إليه ليلتقط الراية، وتصعد روح جعفر الطاهرة إلى السماء.

وعلى بعد آلاف الكيلومترات.. كان الرسول ﷺ يصور للمسلمين ما يحدث لحظة بلحظة، بعد أن رفع الله له الأرض ليطلع على أحداث المعركة..

وأخذ الرسول ﷺ يحكى للمسلمين كيف كانت بطولة جعفر، وكيف حافظ على الراية فلا تسقط على الأرض حتى لا يلامسها التراب، وكيف كانت كل الضربات التي تلقاها في مقدمة جسده، ولم تكن هناك ضربة واحدة في ظهره..

ما أدار لهم ظهره أبدا..

وطار جعفر إلى الجنة بجناحين جعلهما الله له بدلا من ذراعيه..

طار جعفر..ولم يخش أن يترك من ورائه ثلاثة من الأولاد يعانون الفقر وكانوا في أمس الحاجة إليه..

طار جعفر إلى الجنة؛ لأن الجنة أبقى.. ولقاء الله أولى..

سنظل نذكرك يا جعفر.. كلما رأينا طائرا يرفرف بجناحيه في السماء..

سنظل نذكرك يا جعفر.. كلما ذكرنا البطولة والفداء والصمود...

والحرية.

* * *

دروس وتحليل

١ - الحرية في بيت أبي طالب، أفرزت شخصيتين من بيت واحد ، يفخر بهما الإسلام ويخلدهما التاريخ (أبو طالب يجيد تربية أولاده على معاني الحرية).

كان من الواضح أن أبا طالب يعتمد في تربيته لأبنائه على مفهوم الحرية، وهو مبدأ في التربية ينم عن شخصية مستنيرة فكريا، وشخصية مرنة قابلة للتفاهم والحوار، فأبو طالب ترك «علي» و«جعفر» يسلمان وفي سنة واحدة، ثم سمح لجعفر بعد إسلامه بأربع سنوات أن يهاجر إلى الحبشة رغم أنه لم يكن في حاجة إلى ترك مكة، وأبوه زعيم قادر على حمايته لا شك.

هذه الطريقة في التربية، أفرزت شخصيتين قياديتين قاما بدور بارز في تاريخ الإسلام، هما جعفر ابن أبي طالب قائد المسلمين في الحبشة، وعلي بن أبي طالب الخليفة الرابع للمسلمين وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

إن تربية الأبناء على الحرية أمر يزعج الآباء؛ لأنهم يحسبون أن الحرية مرادفة لعدم الرقابة والتوجيه، وهو ما سيؤدي حتما إلى انحلال الأبناء، وهذا التصور عن الحرية خاطئ..

إن الحرية تعني التفاهم والحوار، وتدريب الابن على اتخاذ قراراته بنفسه وتحمل المسئولية، بما يتوافق مع مرحلته السنية، ولا تعني أبدا غياب الرقابة والتوجيه...

إن الحرية تعني توقع خطأ الأبناء، ولكنها تعني أيضا تحمل مسئولية الخطأ والاجتهاد لمعرفة أسبابه من أجل عدم الوقوع فيه مرة أخرى..

إن الحرية تفرز المبدعين والشخصيات العظيمة، والتربية القائمة على الكبت والقهر، تفرز الشخصيات الخائفة التقليدية، التي لن تضيف شيئا للمجتمع وللبشرية...ولنفسها.

٢ - من العقل والحكمة أن تتحدث عن نقاط الاتفاق مع الغير عند الحديث عن الإسلام، لا عن نقاط الاختلاف (جعفر بن أبي طالب يعرض النقاط المتفق عليها بين الإسلام والمسيحية عند عرضه الإسلام على النجاشي).

عند طلب النجاشي من جعفر أن يقدم عرضا للإسلام، أتخيل أن رأس جعفر كانت مزدحمة بأفكار عديدة، اختار منها ما يتفق عليه الجميع، ولا يستطيع أن ينكره أحد مهما كانت ديانته أو ثقافته.. وهو جانب الأخلاق.

بعض الملتزمين لا يستطيعون التعايش مع غيرهم، وربما يكون غيرهم هذا أهل البيت، بسبب أنه يعتقد أن الالتزام يعني كشف نقائص الناس والبحث عن مناطق الخلاف لإبرازها والتناحر حولها، مما يوتر ويلهب العلاقة بينهم وبين الجميع.

إن الإسلام دين يجمع ولا يفرق، وعندما تنجح في الاتفاق مع غيرك على مساحة كبيرة، يصبح المجال مفتوحا لدخول منطقة الخلاف الأكبر بأمان وسلام.. وبنجاح أيضا.

٣- الإسلام دين منهجه في الإصلاح بني على الخلق.(جعفر يركز على معاني الإصلاح في المجتمع عند عرضه للإسلام على النجاشي).

تحدث جعفر عن الأخلاق عندما تحدث عن الإسلام، وفي حديث النبي ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

هذا يعنى أن الدين الإسلامى يعتمد في الأصل في إصلاحه للكون على مبدأ الأخلاق، وهو ما تجاهلته كل الأنظمة الأخرى السائدة في العالم، فربما تنجح هذه الأنظمة في تحقيق نمو اقتصادي مبهر، لكنها تبدأ في التآكل من جانب آخر، بانهيار الأخلاق واستفحال نسب الجريمة..

إن الشعوب العربية عندما أجبرها حكامها على تقليد الغرب في شكله وسلوكه، أملا في أن يتمثل بهم في كل شيء، أصبح شبابها مسخا لا يجري إلا وراء التفاهات، ولا يعرف غيرها، وأصبح يعاني من اللامبالاة والاضمحلال الثقافي وفقدان الطموح والرغبة في صنع شيء مفيد، وابتعد تماما عن هموم وطنه وبلاده وأمته.

إن الشعوب العربية لا تنضج إلا بالأخلاق والإيمان، وفهم الحياة كما عرضها الإسلام وكما أراد الله لهم.

٤- من دعوة الإسلام أن يشعر من تعيش معه،أنك شخص نافع بسيط متسامح، دون أن تتنازل عن مبادئك، ودون أن تتخلى عن واجبك في الدعوة إلى الله.(المسلمون في الحبشة يشتغلون بصناعة الجلود).

حرص المسلمون في الحبشة على أن يصبحوا عناصر نافعة مفيدة لأهل الحبشة، فلا يشعر أهل الحبشة أنهم جاؤوا عالة عليهم، وأنهم مجموعة من أصحاب الكلام، لا يجيدون غير الشعارات الرنانة، فكان أول ما فكر فيه المسلمون، أن يقوموا بمشروع المصنوعات الجلدية وبيعها لأهل الحبشة بأسعار أرخص من السوق.

إن كثيرا من الملتزمين يقصرون الدعوة الإسلامية على الكلام والدعوة إلى أشياء محددة وربما وحيدة هى العبادات – ونحن نقر ذلك ونشدد عليه بالطبع – ولكن التوقف عندها فقط يجعل الشخص العادي يفهم أن التدين يعنى العبادة فقط، وهو إنقاص من رسالة الإسلام، وهم على ذلك يهملون أن هناك دعوة أخرى ومؤثرة جدا، اسمها دعوة السلوك والتعامل، وهي الدعوة التي نجح بها التجار المسلمون في إدخال الإسلام إلى دول بأكملها.

وهذا لا يعنى أن ينخرط الملتزم في المجتمع ويخفى هويته ومبادئه وآراءه، ولكن معناه أن يمارس الملتزم شقى الدعوة: الكلام والفعل.. وأن يعلم أنه عندما يصبح نافعا رحيما ودودا لطيفا، سيكون أقوى تأثيرا بكلماته مرات ومرات من أن يمارس دعوته بالكلام فقط.

٥- حب الله والرسول ﷺ بدرجة تفوق حب الزوجة والأولاد، مفتاح نصر المسلمين في عهد الرسول ﷺ (جعفر يخوض معركة مؤتة دون تردد، بعد خمسة عشر عاما من غربته في الحبشة، وبعد عام واحد من وصوله للمدينة).

لم يتردد جعفر لحظة في خوض معركة مؤتة بعد عام واحد فقط من وصوله إلى المدينة، وبعد خمسة عشرة عاما قضاها في الحبشة، رغم أنه كان فقيرا، وكان وراءه ثلاثة من الأولاد، وخرج إلى المعركة باحثا عن الشهادة بكل صدق.

إن نفسية المسلمين التى تفضل حب الله والرسول ﷺ على الزوجة والأولاد وتتعلق بالآخرة أكثر من تعلقها بالدنيا، كانت مفتاحا لوصول المسلمين إلى أهدافهم، رغم حجم العقبات وصعوبة المواجهة وكمية المؤامرات.

إن الشعوب العربية والإسلامية الآن تتجه بوصلتها في الحساب إلى الدنيا بكل شراسة، وأصبح حب الله والرسول ﷺ شعارا كبيرا نرفعه، ربما يختفى في أحيان كثيرة، عندما يقترب من ساحة الفعل الحقيقى، وكان طبيعيا أن نصبح بعدها بلادا مستسلمة غير قادرة على تحقيق أي من أهدافها، ولا حتى الحفاظ على كرامتها؛ لأنها تكتشف في كل مرة، أن تحقيق الكرامة والاستقلال يعني التضحية.. والتضحية تعني الابتعاد عن الدنيا.. وهو ما لا نستطيع أن تتحمله.

٦- التكافل الاجتماعي سمة من سمات المجتمع المسلم (المسلمون يبادرون بكفالة أولاد جعفر بعد استشهاده).

بعد استشهاد جعفر ترك وراءه ثلاثة من الأولاد، وبمجرد عرض الرسول ﷺ على المسلمين الأمر عليهم حتى يتكفل بهم أحد، إذا بثلاثة من المسلمين يبادرون بكفالتهم على الرغم من أنهم فقراء.

إن البحث عن رضا الله والرسول ﷺ والفوز بالجنة، كان يجعل المسلمين سباقين دائما إلى فعل الخير بغض النظر عن المستوى الاجتماعى، كل حسب استطاعته، وهو دافع يغرسه الإسلام في المسلمين، ليصبح المجتمع مترابطا متحابا، وهوأحد ركائز قوة المسلمين لا شك.

٧- الشعوب تنتمى لبلادها انتماءا حقيقيا، عندما تشعر أن بلادها تحترمها وتدافع عنها وتحفظ لها كرامتها (الرسول ﷺ يصدر قرارا بحرب الغساسنة ثأرا لرسوله (الحارث بن عمير الأزدي) الذي قتل غدرا).

إن الإسلام لا ينسى أبناءه، ولا يفرط في حقهم وكرامتهم، فلقد كان سبب غزوة مؤتة هوالثأر لرسول النبى ﷺ إلى الغساسنة (الحارث بن عمير الأزدي)، فقامت الغزوة ضد القوة العظمى وهي الروم، وعندما استشهد جعفر بن أبي طالب، بحث الرسول ﷺ عمن يكفل أبناءه.

إنه تعميق لمعنى الانتماء، فالفرد لا يستطيع أن ينتمى لجماعة لا تدافع عنه، ولا تحفظ له كرامته ولا تبحث له عن حل لمشاكله، وبعض الحكومات العربية تترك أبناءها بلا خدمات، وتصدر لهم الإهانات يوميا، ثم تطلب منهم أن يجتهدوا في عملهم، ويضحوا من أجلها بدافع الانتماء.

كيف؟!!

* * *